أصول التوكل...



▶يلخ م التاريخ معنى التوكل على ا ا سبحانه في واقعة فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي، وهي واقعة أح ُد التي فتحت في المسلمين جرحا ً عميقاً ، وذلك بعد أن عصى بعض المسلمين ا ا سبحانه وتعالى، وانهزموا، وولوا الأدبار، وعموا الرسول (ص) عندما أمرهم بالوقوف والثبات في موضع مهم، فلم يطيعوه، وشاع في تلك الفترة بين الناس أن الرسول محمد (ص) قد قتل[1]، فقال بعض المتخاذلين: ليت لنا رسولا ً إلى (عبدا النياس أن الرسول محمد (ص) قد قتل[1]، فقال بعض المتخاذلين: ليت لنا رسولا ً إلى (عبدا إلى أومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قد قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمّ تا يقول قد في أبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء فشد ً بسيفه فقاتل حتى قتل. في تلك الفترة العميبة من تاريخ الرسالة، روّج المنافقون الكثير من الإشاعات المحبطة للعزيمة، في محاولة لبث ّ روح اليأس بين المؤمنين، فقالت الإشاعات أن المشركين قد جمعوا وأعدوا، وأن مصير المؤمنين القتل والفناء وهتك الأعراض. في تلك الفترة العرجة قد ّ م الإسلام أو لل درس في معنى الارتباط الروحي با اسبحانه، فتبت قالم يتعلمه الإنسان في المحنة يسهل عليه ممارسته في اليسر والرخاء.. فيصف القرآن الكريم هذه الحالة قاعدة التوكل على الصناة من السلام أو لا درس في معنى الارتباط الروحي با التحرية ومناه السلام أو لا درس في معنى الارتباط الروحي با المحنة، لأن ما يتعلمه الإنسان في المحنة يسهل عليه ممارسته في اليسر والرخاء.. فيصف القرآن الكريم هذه الحالة وذلك الطرف وصفا ً رائعاً .. يقول تعالى: (السّدَ ين قال َل هَمُ مُ النسّان المؤمن، الذين كانوا يستخدمون مختلف الأساليب لتثبيط المؤمنين المقاتين، المائينة في قلب المتخاذلون المشطون، الذين كانوا يستخدمون مختلف الأساليب لتثبيط المؤمنين المقاتين المطأنينة في قلب المتخدمون مختلف الأساليان المؤمنين المقاتين، المطأنينة في قلب الإنسان المؤمن.. ولذلك يقول القرآن (دَوْرَادَ الدَهُ مُ العَل المؤمنين المقاتين المطأنينة في قلب الإنسان المؤمن.. ولذلك يقول القرآن (دَوْرَادَ ادَهُ مُ العَل المائينة في قلب الإنسان المؤمني القراد القراد المسلون المؤمني القراد القراد المؤلد المائية السلام المؤمني الخال القراد المؤلد المؤلد القراد المؤلد القراد المؤلد المؤلد القراد المؤلد القراد المؤلد المؤلد القراد التحديد

والحقيقة أن "السعي في الحياة يتطلب أسبابا ً طبيعية وأخرى روحية غيبية، أو نفسية كما يصطلح عليها الغربيون.. فالخوف والتهيب لا ينتج إ "لا عن شيء لا يفس ّر إ "لا تفسيرا ً واحدا ً ألا وهو اختلال الحالة النفسية والشعورية للإنسان.. وكذلك الحزن وسوء الظن وفساد النيّة والطيش وغيرها من الأمور.. ولا شيء يصحح هذا الاختلال النفسي، والاضطراب الروحي غير التوكل على ا اللهتان وتعالى.. ولذلك يقول الباري عزا وجلاً: (وَ مَن ْ يَتَو َكَ ّلَ ْ عَلَى الله َ مَ فَه ُو َ حَس ْبهُ هُ أَ رَن الله َ مَ بَالّغ ُ أَ مَ رْهِ.) (الطلاق/ 3).

ويثبت القرآن الكريم خمس صفات أساسية في شخصية الإنسان المؤمن، الواعي لحقيقة الإيمان، من هذه

الصفات التوكل على ا□ سبحانه وتعالى.. يقول عز وجل : (إ ن َ مَا الْهُ وُهْ مِنُونَ ال ّ َذ ين َ إِ ذَا تُهُمْ ذُكرِرَ اللا ّ هُ وَجِلاَتُ وَلَا وبُهُمْ وَ إِذَا تُلْيِتُ عَلاَيهُهِمْ آيَاتُهُ زَادَ تهُمُ وَ كَرَرَ اللهِ عَلَيهُ هَمْ السّادة وَمِم السّادة وَمَم السّادة وَمَم السّادة وَم م السّادة وَم السّادة وَا السّادة وَم السّادة وَا السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَا السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَم السّادة وَم السّادة

ثمِّ لا يزال ينبسط الإيمان ويتعرِّق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه تعالى، والهادية إلى المعارف الحقَّة، فكلَّما تأمل المؤمن في شيء منها زادته إيماناً، فيقوى الإيمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين، وهي قوله تعالى: (و َإِذَا تُلْيِيَت ْ عَلَي ْهِمْ ْ آيَاتُهُ ْ زَادَ تـْهُمْ ْ إِيمَانًا).

وإذا زاد الإيمان وكمل كمالا ً عرف عندئذ ٍ مقام ربه وموقع نفسه، معرفة تطابق واقع الأمر، وهو أن ّ الأمر كلتّه إلى ا∏ سبحانه، فإنتّه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل ّ شيء، فالواجب الحق ّ على الإنسان أن يتوكل عليه ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلا ً في جميع ما يهمه في حياته، فيرضى بما يقد ّر له في مسيرة الحياة، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشر ّعه من الشرائع فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، وهو قوله تعالى: (و َعَلَى ر َب ّ هيم ْ ي َت َو َكَ ّ لَهُون َ).

ثم ّ إذا استقر الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية إلى ربه، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة، وهي أمر بينه وبين ربه، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مم ّا رزقه ا□ من مال أو علم أو غير ذلك، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه، وهو قاله تعالى: (السّنَذِينَ ينُقِيمُونَ الصّنَلاةَ وَمَمِّاً رَزَقَّنَاهُمْ ْ ينُنْفَقِونَ)[2]".

ويقول الإمام الصادق (ع)[4] في هذا الصدد: "من أعطى ثلاثا ً لا يمنع ثلاثا ً: من أعطى الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطى الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطي الكفاية. أما تلوت كتاب ا∐ عز ّوجل ّ: (و َم َن ْ ي َت َو َكَّ َل ْ ع َلـَى اللاّ َه ِ ف َه ُو َ ح َس ْبهُ هُ) (الطلاق/ 3)، (ل َئرَن ْ ش َك َر ْ تُ م لأز ِيد َن ّ َك ُم ْ) (إبراهيم/ 7)، (اد ْع ُون ِي أ َس ْت َج ِب ْ ل َك ُم ْ) (غافر/ 60)".

ويخاطب القرآن الكريم أولئك الذين يعتمدون على عباد أمثالهم وينسون التوكل على ا□ سبحانه، فيذكّرهم بأنّ الرزق والحياة والمصير والأقدار كلها بيد ا□ سبحانه، فيقول تعالى: (إِنِّ َ الَّ ذَيِنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَ ِ اللَّهَ عِبَادُ أَ مَنْ اَلُكُمْ (الأعراف/ 194). (إِنَّ َ السَّدَينَ تَعْبُوا عَنْدَ اللَّهَ ِ تَعْبُدُ وَنَ مِنْ دُونَ اللَّهَ لِا يَمْلَكُونَ لَكُمْ (رِزْقًا فَابِنْتَغُوا عَنْدَ اللَّهَ ِ اللَّهَ اللَّهَ اللَّهَ اللَّهَ اللَّهَ وَالأَرْضِ وَلَلَّهَ اللَّهَ اللَّهَ اللَّهَ وَاعْبُدُ وَنَ اللَّهَ وَالأَرْضِ وَلَكَدِنَ اللَّهَ اللهِ مَا وَاتِ وَ الأَرْضِ وَلَكَدِنَ اللَّهَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ ا

بررَحْمْتَةٍ هَلَّ هُنَّ مُمْسْكَاتُ رَحْمْتَهِ قَلُ ْ حَسْبِيَ اللَّهَ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلَ ُ الذين يجعلون الْمُنكورة آنفا ً تهاجم بشكل عام، الذين يجعلون الْمُعَّدُورة آنفا ً تهاجم بشكل عام، الذين يجعلون النهن الدادا ً يقدمون لهم الولاء والطاعة، ويحسبون أنهم بولاء هؤلاء الأنداد إنَّما يستطيعون دفع السيئات والابتلاءات ومصاعب الحياة.. وينسون أنَّ الأمر الأوَّل والأخير بيد ا اسبحانه، وأنَّ تقدير الأمور وتقسيم الأرزاق بيده عزَّ وجلَّ، فلرِمَ الاعتماد على غيره، وهو القادر الحكيم، المقتدر الرازق، جبار السماوات والأرض؟... إنَّ الذين لا يتوكلون على ا في أعمالهم هم بلا شك من الأخسرين أعمالاً، الذين خسروا الدنيا والآخرة، وليس لهم في الآخرة إَّلا الحسرة والندم والعذاب..

ويشير القرآن الكريم إلى أنّ التوكّل على ا□ سبحانه هو جزء من طاعته عزّ وجلّ، فالتوكيل "هو إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله، وفعله مقام فعله، فينطبق بوجه عام على الإطاعة فإنّ المطيع يجعل إرادته وعمله تبعا ً لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقا ً لإرادة المطاع صادرا ً منها اعتبارا ً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه عام كما أنّ التكيل إطاعة بوجه عام.

فإطاعة العبد لربه إتباع إرادته ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة أخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل. فطاعته تعالى فيما شرَّع لعباده وما يتعلّق بها نوع من التوكل عليه، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به فعلى ا□ فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا، وأمّا من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة"[7]. ولذلك جاءت الآية القرآنية الكريمة لتؤكد هذا المعنى.. يقول تعالى: (اللّاّهُ لا إلِاَهَ إلا هُو َ وَعَلَى اللّاّهَ وَلاَّا اللّاّهَ وَالاَ

ويذكر القرآن الكريم أن "التوكل على ا□ إناه هو إرجاع أمر تدبير الأمور والحياة إليه، وأنه هو مسبب الأسباب، وينتهي إليه كل سبب.. أما الإنابة فهي الرجوع إلى حكم ا□ تشريعا في كل واقعة يستقبلها الإنسان في مسيرة حياته.. وقد جاء التوكل والإنابة في موضع واحد حيث يقول سبحانه وتعالى: (و َمَا اخْتَلَهُ وْتَكُمُ الله وَيهُ مَنْ شَيْءٍ فَحُكُمْهُ أَإِلاَ مَاللا مَ ذَلَكِكُمُ الله وَ مَنْ مَنْ شَيْءٍ وَحُكُمْهُ أَإِلاَ مِاللا مَ ذَلَكِكُمُ اللا مَ وَمَا الله وَيَالِي وَمَا الخُتَلامُ وَ إَلَا يَهُ وَ أَنْزِيبُ) (الشوري/ 10)، والمعنى: وهو كلام محكي للنبي "(ص)، إني أرجع في جميع أموري إلى ا□ سبحانه تكوينا وتشريعا ً.. وكذلك يحث ُ ا□ سبحانه وتعالى رسوله الكريم أرجع في جميع أموري إلى ا□ سبحانه (و َتَو َكَ لَا عَلَى الله وَكَلِيلا) (الأحزاب/ 3).

إذن فالتوكل هو أحد الأسباب المتعلقة با□ سبحانه وتعالى، المكملة للأسباب الطبيعية المألوفة، فالإنسان يسعى لإنجاز العمل بكلّ ً طاقته، وتسديد ذلك العمل يبقى على ا□ سبحانه، ولذلك فإن ّ التوكل على ا□ أمر ضروري في حركة الإنسان في الحياة، لأنسّها ترسخ العلاقة الحميمة بين المخلوق الضعيف والخالق الجباّر..

- [1]- في الدر المنثور أخرجه ابن جرير عن السدي.
- [2]- الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمّّد حسين الطباطبائي.
 - [3]- جامع السعادات/ النراقي، ج3، ص230-218.
 - [4]- المصدر السابق، ص222.
 - [5]- ظاهر السياق أنّ المراد بالمخافة مخافة ا□ سبحانه.
- [6]- أنَّ النعمة إذا أطلقت في عرف القرآن يراد بها الولاية الإلهية فهما كانا من أولياء ا□ تعالى.
 - [7]- للتوسع راجع الميزان للمرحوم السيد الطباطبائي كلام في التوكل، ج4، ص65.

المصدر: كتاب الأخلاق القرآنيّة ج2